

قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافى

كلية الاداب - جامعة دمشق

كانت قافلة الحج الشامي احدى قافلتين رئيسيتين في الدولة العثمانية ، والقافلة الاخرى هي قافلة الحج المصري . وقد اوجدت في عام ١٥٥٦/٩٦٣ قافلة ثالثة ، هي قافلة الحج اليمني ، ولكن وجودها كان متقطعا ، والغيت في عام ١٦٣٥ ، عندما استقل اليمن ، بزعماء الأئمة الزيديين ، عن العثمانيين . وكان اليمن بذلك اول ولاية عربية تخرج عن السلطة العثمانية .

وقد لعبت قافلة الحج الشامي دورا هاما في تاريخ دمشق وبلاد الشام بعامه ، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية . وكانت لها اهمية خاصة في الدولة العثمانية لان السلطان العثماني ، منذ فتحه حلب في عام ١٥١٦ ، اتخذ لقب حامي (او خادم) الحرمين الشريفين ، واقتضى ذلك تأمين سلامة الحجاج لزيارة الحرمين الشريفين . كما ان انتقال العلماء والافكار ، وكذلك التجار ورؤوس الاموال ، من دمشق واليهما ، ابان فترة الحج ، كانت له آثاره الواضحة محليا وفي الدولة العثمانية ككل .

تشكل القافلة

ام دمشق ، في موسم الحج ، عدد كبير من الحجاج ، من المناطق الشمالية والشرقية ، من داخل الدولة العثمانية وخارجها . ووصل الحجاج اليها جماعات عرفت بحسب مناطقها . وكان ابرزها الحج الرومي ، والحج الحلبي ، والحج العجمي ،

* اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ، ١٦ - ٢٢ جمادى
الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ - ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

والحج الشامي (١) . ولم تكن هذه التقسيمات الجغرافية ضيقة المعنى ، اذ التحق بهذه الجماعات حجاج من خارج مناطقهم . وكان اكثر هذه الجماعات عددا الحج الرومي لان كلمة روم اطلقت على المناطق ما وراء طوروس والفرات (٢) .

ولم يمر الحج الرومي، في الغالب، بمدينة حلب، ولهذا لم يندمج مع الحج الحليبي . أما الحج العجمي فكان يأتي الى دمشق اما عبر حلب او مباشرة عبر بغداد والطريق الصحراوي برفقة قافلة التجارة ، للافادة من الحماية المتوافرة لها . ووصل بعض الحجاج الى دمشق قبل انطلاق القافلة باربعة او خمسة اشهر ولكن الغالبية منهم وصلت في شهر رمضان . واقام معظم الحجاج في منطقة المريج بدمشق ، قرب التكية السليمانية . ونزل بعضهم في خان الحرمين ، قرب باب البريد (٣) ، او بالقرب من جامع الورد (٤) ، في سوق ساروجا . واقام الحجاج الاعجماء عادة في حي الخراب والسويقة (٥) .

ولم يشر الاخباريون الدمشقيون الى عدد الحجاج الذين وصلوا دمشق . وكانوا يكتفون بالقول انه وصل حج كبير او كثير . واشاروا احيانا الى عدد الحجاج الاعجماء الذين قدروا عددهم ، في احدى المرات ، بنحو ثلاثمائة (٦) ، وفي مرة اخرى ، بألف وستمائة ، ووصفوه انذاك بأنهم « حجاج كثيرون من العجم » (٧) . وقد لفت الحجاج الاعجماء النظر بسبب البضائع التي كانوا يحملونها وبخاصة الاحجار الكريمة .

ولم يشر الاخباريون المحليون الى عدد حجاج قافلة الحج الشامي ككل الا في الحالات التي هوجمت فيها القافلة في طريقها الى الحجاز . ولم تكن الاعداد التي اعطوها صحيحة لانها غير مبنية على اية وقائع . وكثيرا ما كانت تضخم للايحاء بشدة الهجوم وكثرة الخسائر ، كما حدث مثلا بالنسبة للقافلة التي هوجمت في طريق العودة في ايلول ١٧٥٧ ، في المنطقة بين القطرانة ومعان . وقد قدر عدد هذه القافلة الرحالة الفرنسي فولني ، الذي زار بلاد الشام في حوالي عام ١٧٨٤ ، بأنه كان ٦٠٠٠ (٨) . وقدرها مصدر معاصر في استانبول بأنها كانت بين ٧٠٠٠ و ١٠٠٠٠ (٩) . وذكر فولني ان عدد حجاج القافلة في الظروف العادية تراوح بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ (١٠) . وقد قدر عددها مراقب آخر في عام ١٧٣٩ بأنه يتراوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ (١١) . ولعل متوسط عدد حجاج قافلة الحج الشامي كان بحدود ٢٠٠٠ ، وارتفع احيانا الى ٤٠٠٠ ، او اكثر ، في الاوقات التي اعقبت كارثة ما ، او حربا ما ، اقتضت التوجه الى الحج لشكر الله على انتهائها ، او حين ازدهرت حركة التجارة مما زاد في عدد التجار المرافقين لقافلة الحج (١٢) .

وقد تناقص عدد الحجاج الاروام ، الملتحقين بقافلة الحج الشامي ، في القرن التاسع عشر ، في اعقاب تسيير البواخر المنتظمة في البحر الابيض المتوسط ، فانتقل عدد متزايد من الحجاج بواسطتها الى جدة ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ . وقدر عدد حجاج القافلة التي عادت الى دمشق في ٢١ نيسان ١٨٤٥ ب ٦٠٠٠ منهم ٢٠٠٠ تركي و ٢٠٠٠ عجمي والبقية من العرب (١٣) . وذكر ان الحجاج الاعجام قد استخدموا في اوائل عام ١٨٧٠ البواخر من الخليج العربي الى جدة (١٤) .

قيادة القافلة :

لم تخرج قافلة الحج الشامي الى الحجاز في السنتين اللتين اعقبنا الفتح العثماني لبلاد الشام في عام ١٥١٦ بسبب التبدل في السلطة الحاكمة واضطراب الامن في الارياض وتحرك القبائل البدوية (١٥) . وبعد ما قضى العثمانيون على ثورة جان يردي الغزالي ، والي دمشق المملوكي الاصل ، في عام ١٥٢١ ، استبعد المماليك نهائيا من اماره الحج الشامي ، في حين انهم تسلموا قيادة قافلة الحج المصري طوال وجودهم في مصر في العهد العثماني . وعمد العثمانيون ، في بلاد الشام ، الى تعيين احد الامراء المحليين ، من حكام صناعق غزة او عجلون او اللجون او نابلس او صفد او القدس ، التي كانت تتبع ولاية الشام ، اميرا على الحج . وممن عين من هؤلاء الامراء المحليين امراء لقافلة الحج الشامي قانسوه بن مساعدة الغزاوي امير عجلون والكركة ، الذي شغل منصب امير الحج الشامي مدة خمس عشرة سنة ، من حوالي عام ١٥٧٢/٩٨٠ - ١٥٧٣ ، وعين ايضا لهذا المنصب الامير منصور بن فريخ ، امير البقاع ، الذي مد سلطته على صناعق صفد وعجلون ونابلس ، والامير احمد بن الامير قانسوه بن مساعدة الغزاوي ، حاكم عجلون ، والامير طراباي ، حاكم اللجون ، والامير فروخ بن عبد الله ، حاكم نابلس والقدس (١٦) .

وكانت الدولة العثمانية قد اعترفت بهؤلاء الامراء المحليين ، الذين قامت قوتهم على اسس قبلية واقطاعية ، حكاما على الصناعق التابعة لولاية الشام لانهم اثبتوا وجودهم وسلطتهم محليا ، وكان القضاء عليهم سيكلف الدولة كثيرا من الجهد . وضمنت الدولة بذلك دفعهم الضرائب اي اموال الميري (المشتقة من امير وتعجبى من اراضي الدولة) ، عن المناطق التي سيطروا عليها . ثم عمدت الى تعيين بعضهم امراء للحج لانهم اصحاب سلطة بين البدو وبماكانهم تسيير قافلة الحج بسلام الى الحجاز . ولجأت الدولة ، من ناحية اخرى ، لضمان سلطتها على هؤلاء الامراء ، الى اثاره امير ضد آخر .

وحين قام فخر الدين المعني الثاني ، امير جبل لبنان ، بتوسيع سلطته في الفترة بين ١٥٩٠ و ١٦٣٥ ، لتشمل الساحل اللبناني والبقاع وصنّاجق فلسطين . اصطدم بالامراء المحليين ، الذين عينوا امراء على الحج ، فأزال بعضهم من السلطة ، واضعف البعض الآخر . وحين قضت الدولة العثمانية على الامير فخر الدين في عام ١٦٣٥ ظهر فراغ محلي في المنطقة ، سرعان ما ملأه ولاية دمشق وولاية صيدا ، بعد تأسيس هذه الولاية في عام ١٦٦٠ . وعمدت الدولة الى تعيين انكشارية دمشق الذين ازدادت سلطتهم ، في هذه الفترة ، امراء على الحج الشامي . وعين هؤلاء الانكشارية ، في الوقت نفسه ، حكاما على صنّجق او اكثر من صنّاجق فلسطين ، ليتمكنوا من جمع الضرائب المحلية ، لتغطية نفقات القافلة . كما ان القوات الموضوعة تحت تصرفهم ، لقيادة القافلة ، اقامت معهم في هذه الصنّاجق . وبازدياد نفوذ انكشارية دمشق عمدت الدولة ، في عهد الوزراء العظام من آل كوبرلي (١٦٥٦-١٦٧٦) ، الى البطش بزعمائهم في عام ١٦٥٩ . واقامت طائفة انكشارية جديدة عرفت بالقابلي قول (عبيد السلطان) الى جانبهم . وكانت هذه الطائفة اكثر ولاء للسلطان . وعرفت الطائفة الاولى باليرلية (المحلية) وبدولة دمشق ، لكثرة ما سيطرت عليها العناصر المحلية ، بينما عرفت القابلي قول بدولة القلعة . حيث اقامت سلطتها ودعمت هيبة الدولة . ولجأت الدولة اثر ذلك الى تعيين موظفين عثمانيين ، ضموا بعض ولاية دمشق ، امراء للحج الشامي . وعين بعضهم ، في الوقت نفسه ، حكاما على الصنّاجق السابقة . وطبيعي انه لم تكن هناك من سنة محددة تم فيها استبدال طائفة من امراء الحج باخرى ، اذ تداخلت الفترات مع بعضها ، ومع ذلك تميزت كل فترة باشتهار فئة معينة في اماره الحج (١٧) .

وحين عين حاكم الصنّجق اميرا على الحج ، وكذلك حين عين امير الحج حاكما على صنّجق ما . فان امير الحج - حاكم الصنّجق اقام مع قوائمه في ذلك الصنّجق الى ان يحين موعد سفر القافلة . ويأتي عندئذ الى قبة الحج ، في طرف دمشق الجنوبي ، خارج بوابة ، او باب الله ، حيث تتجمع قافلة الحج ، لقيادتها الى الحجاز . وفي الحالات التي لم يعين فيها امير الحج حاكما على صنّجق ما فانه اقام مع القوات الموضوعة تحت تصرفه في دمشق . ونتج عن ذلك اضطراب الوضع الامني والاجتماعي في المدينة لما سببته تلك القوات من فوضى . وذكر مفتي دمشق محمد خليل المرادي ، صاحب « سلك الدرر » . ان هذه الفوضى حفزت جده مراد المرادي للطلب من السلطان « برفع اماره الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الامر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امانة الحاج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدايد بها ... وقبل السلطان رجاء ورفعها عن دمشق وكانت منذ سنين لم ترفع

ووجهها للشریف يحيى بن بركات المكي بمنصب القدس فذهب المذكور في تلك السنة اميرا للحج وارتفع عن اهالي دمشق في تلك السنة الظلم والفساد والجرائم مما كان يوجد في وقت الحج . ثم ان الشریف يحيى المذكور سها سهوة بأذيه بعض الحجاج وبغى العرب فلما اخبرت الدولة العلية بصنيع الشریف يحيى عزل من ذلك واعيدت اماره الحج الى دمشق كما كانت وهي الى الآن « (١٨) . وكانت اماره الشریف يحيى للحج في سنة ١١٠٢ / ١٦٩٠ - ١٦٩١ . وأصبحت دمشق منذ هذا التاريخ مركز امراء الحج من الموظفين والولاة ، ولكن لم يعين ولايتها باستمرار امراء للحج حتى عام ١٧٠٨ .

ولم يكن للموظفين العثمانيين ، الذين عينوا امراء للحج ، مصالح محلية ، على غرار حكام الصناجق المحليين ، ليحرصوا عليها بل كان همهم الاثراء من منصبهم بعد ان اشتروه بالمال ، لذا عمدوا الى الامتناع عن دفع ما اعتادت الدولة دفعه من اعطيات للقبائل المتحكمة بطريق الحج لشراء طاعتها وحمايتها للقافلة . وقد عرفت هذه الاعطيات بالصر او الصرة . وكانت تدفع للقبائل على قسطين ، في الذهاب وفي الاياب . وادى امتناع امير الحج عن دفع الصر الى البدو ، وبخاصة في طريق العودة ، الى مهاجمة القبائل القافلة . ومما أغرى البدو للقيام بذلك ان القافلة في طريق العودة كانت محملة بالبضائع .

وقد هوجمت قافلة الحج سبع مرات في القرن السابع عشر جرت خمس منها في الثلاثين سنة الاخيرة من القرن ، حين عين امراء الحج من الموظفين . وأدى هجوم عام ١١١٢/ ١٧٠٠-١٧٠١ الى اباداة القافلة بكاملها تقريبا . وتسببت كثافة الهجمات في الاضرار بهيبة الدولة لدى المسلمين . وكانت الدولة العثمانية قد خرجت لتوها من حرب خاسرة مع ال هابسبورغ في اوروبا اذ وقعت معهم في عام ١٦٩٩ معاهدة كارلوفيتز التي تخلت لهم بموجبها عن جميع هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا . وكانت هذه اول خسارة كبرى للعثمانيين منذ حوالي ثلاثمائة عام ، حين هزمهم تيمورلنك في عام ١٤٠٢ . كما كانت هذه اول مرة وقع فيها العثمانيون الصلح كمنهزمين وتخلوا عن مناطق سيطروا عليها منذ فترة طويلة . وغدا السلطان ، بنتيجة ذلك ، أكثر حرصا على سمعته بين المسلمين وبالتالي أكثر تصميمًا للحفاظ على سلامة قافلة الحج الشامي ، بصفته حامي الحرمين الشريفين . ولهذا عمد في عام ١٧٠٨ الى تعيين والي دمشق باستمرار اميرا للحج الشامي . وترتب على ذلك حدوث تطورات هامة في تاريخ دمشق . فلم يعد والي دمشق يكلف من قبل السلطان بالمشاركة في الحملات خارج حدود ولايته ، كما ان سفر الوالي - امير الحج مدة ثلاثة اشهر مع قافلة الحج اتاح المجال للقوى المتنفة في دمشق للاقتتال فيما بينها وتعكير الامن العام غير عابئة بسلطة المتسلم الذي ناب عن الوالي .

وادی استئجار الوالی - امیر الحج القوات المرتزقة وتجميعها في دمشق لحماية القافلة، الى اضطراب الامن في المدينة لان هذه القوات رفضت مغادرة دمشق بعد انتهاء مهمتها . وكان لها تأثير سيء على الاخلاق العامة التي انهارت بسببها وبسبب الضائقة الاقتصادية لدى قطاع كبير من الشعب . وهذا ما يفسر كثرة ايراد البديري في يومياته لخبار بنات الهوى وحوادث الانتحار .

ومن التطورات الهامة التي ترتبت على تعيين والي دمشق اميرا للحج استمراره في منصبه طالما انه يؤمن سلامة القافلة مما ارضى السلطان والراي العام الديني . ولهذا شهدت دمشق ، منذ عام ١٧٠٨ ، استمرار ولايتها في الحكم سنوات عديدة ، خلافا لما كلن عليه الامر في القرن السابق . وقد ادى ذلك الى اطالة حكم الولاة من آل العظم الذين امنوا سلامة القافلة ، وحكموا دمشق حوالي ستين سنة بشكل متقطع في القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر .

واستمر ولاية دمشق يعينون امراء للحج حتى عام ١٨٦٦ حين فصل المنصبان ، وعهد بالامارة الى قائد قوات (الباش بوزوق) ، الذي أصبح يعرف بمحافظ الحج . واختير محافظ الحج ، في الفترة بين ١٨٦٦ و ١٩١٦ عندما توقفت القافلة ، من اغوات الاكراد في دمشق ، من أسر اجليقيين وبوظو وشمدين واليوسف (١٩) . وهكذا نلاحظ ان تبدل هوية امير الحج الشامي ، خلال اربعة قرون من الحكم العثماني ، قد املتته التطورات السياسية في بلاد الشام و تبدل الاوضاع العامة في الدولة العثمانية .

والى جانب امير الحج وجد امير الجردة الذي عرف ايضا بلقب باشة الجردة ، وجرده جي ، وامير الملاقاة . ومهمة الجردة ، في الاساس ، الخروج للملاقاة القافلة في طريق عودتها وتزويدها بالمؤن التي تنقصها . ونظرا لتعرض الجردة الى هجمات البدو فقد اضطرت الى التساج . وعلى غرار امير الحج عين امين الجردة اولا من بين الامراء المحليين ثم من الانكشارية والموظفين . وحين أصبح ولاية الشام امراء للحج عهد بامارة الجردة الى والي صيدا او والي طرابلس ، وفي حالات نادرة الى والي حلب . وعمد والي دمشق - امير الحج الى الطلب من السلطان ان يعين ابنا له او قريبا واليا على صيدا او طرابلس او كليهما ليضمن ولاء امير الجردة وحرصه على الذهاب الى ابعد مسافة في ملاقة الحج . ولهذا كثيرا ما حكم افراد اسرة واحدة ، في القرن الثامن عشر ، ولايات الشام وصيدا وطرابلس في آن . وابتعد نقطة وصل اليها امير الجردة للملاقاة قافلة الحج كانت في هدية . وتغادر الجردة دمشق عادة في شهر ذي العقدة او ذي الحجة ، واذا ما تعرضت الى اعتداء عليها وجب اعداد جردة اخرى . والقيت مسؤولية ذلك ، في الغالب ، على الدمشقيين (٢٠) .

تمويل القافلة

تنوعت المصادر المالية التي مولت قافلة الحج الشامي ، وجاء قسم كبير منها من الضرائب التي اشير اليها بـمال الميري ، او من الرسوم التي فرضتها الدولة على التجارة والصناعات في ولاية الشام بصورة رئيسية وفي ولايات صيدا وطرابلس وحلب الى حد ما . وقد سبقت الاشارة الى ان تعيين امير الحج من بين حكام صناعق نابلس ، عجلون ، اللجون ، غزة ، صفد ، القدس ، او تعيين امير الحج حاكما ، في الوقت نفسه ، على واحد او اكثر من هذه الصناعق ، في الفترة التي سبقت تعيين والي الشام اميرا للحج ، في ١٧٠٨ ، كان الهدف منه جمع اموال الميري من هذه المناطق لتمويل قافلة الحج . وعرف المال المخصص لذلك بأنه « مال الحج » ، والمال المخصص للجردة بأنه « مال ملاقة الجردة » (٢١) . وعندما عين والي دمشق اميرا للحج اصبح يخرج بنفسه كل سنة ، قبيل خروج القافلة ليدور على الصناعق التابعة لولايته ويجمع منها مال الميري المخصص للقافلة ، وعرف خروجه هذا بالدورة . ورغم ان والي دمشق هو في الاساس المحصل الرئيسي لاموال الميري في ولايته فلم يكن مضطرا قبل تعيينه لامارة الحج للخروج كل سنة لجمع الضرائب لان حكام الصناعق المحليين الذين عينوا امراء للحج قاموا عنه بهذه المهمة . واستغرقت الدورة ما يقرب من الشهر واصطدم والي خلالها بالملتزمين الذين رفضوا دفع اموال الميري ، كما حدث مثلا في هجوم والي دمشق سليمان باشا العظم على ظاهر العمر المتحصن في طبرية في عام ١٧٤٣ ، وقد توفي والي اثناء الحصار (٢٢) . واذا ما اضفنا الزمن الذي اقتضاه غياب والي في الدورة الى فترة غيابه مع قافلة الحج لتبين ان مجموع غيابه عن دمشق مشغولا بأمور القافلة قد بلغ حوالي اربعة اشهر .

ومن الموارد المالية التي رصدت لقافلة الحج « مال البدل » ، اي المال الذي دفعه اصحاب الاقطاعات من الجنود السباهية (الفرسان) لقاء اعفائهم من القيام بالخدمة العسكرية . وقد حدث ذلك بعد ان تضاعف شأن الجنود السباهية ، بالمقارنة مع الانكشارية اصحاب النفوذ المتزايد (٢٣) . كما ان مالكانات حمص وحماه ومعرة النعمان التي التزمت ضرائبها مدى الحياة الحققت بوالى دمشق منذ ان عين اميرا للحج لينفق من عائداتها على قافلة الحج (٢٤) . وهناك مصادر مالية اخرى ، مثل التزام المقاطعات والاقلام المتنوعة التي رصدت لتمويل الحج والتي يضيق المجال بذكرها .

واستخدم امير الحج هذه الموارد للانفاق على احتياجات القافلة مثل استئجار قوى عسكرية غير نظامية للمشاركة في حماية القافلة ، وتوفير المؤن اللازمة للقائمين بشؤون الحج ، وكذلك وسائط نقلهم ، ولدينا معلومات مفصلة تبين أنواع السلع التي

اشتراها امير الحج للوفاء باحتياجاته فقد اشترى مثلاً حسن باشا امير الركب الشامي في عام ١١١٩/١٧٠٨ مقدار ٧١٥ قنطاراً من البكسماد من طائفة البكسمادية بدمشق لاحتياجاته (٢٥) .

وعرف هذا البكسماد ، الذي كان على شكل قوالب ، بالسفري ، ويصنعونه عادة من طحين الخاص ، واشترط فيه ان يكون يابسا ، ظاهره كباطنه ، ليتحمل السفر ، ويبل بالماء عند اكله (٢٦) . وخصصت كميات كبيرة من الحنطة والشعير ، من صناعتي ولاية الشام لتمويل القافلة . وقد جاء في سجلات غرة الشرعية مثلاً ، انه نقل من شونه غرة في شوال ١٢٧٣ / حزيران ١٨٥٧ الى بندر معان ، لتموين الحج الشامي ، مقدار ١٨٦٤٠ كيلة شعير بالكيل الجيدي (وزن كيلة الشعير ٢٢ر٢٥ كغ) . ونقل في جمادى الاولى ١٢٧٦ / كانون الاول ١٨٥٩ ، مقدار ١٠٩٩١ كيلة حنطة (وزن كيلة الحنطة ٢٥ر٢٧ كغ) و ٢٢٩٩٢ر٢٥ كيلة شعير الى بندر معان الغرض نفسه (٢٧) .

واحتاج امير الحج الى استئجار المئات من الجمال لنقل الجنود والمؤن المتعلقة بالقافلة ، فقد استأجر عثمان باشا والي الشام وامير الحج ، في جمادى الاولى ١١٧٤ / كانون الاول ١٧٦٠ ، خمسمائة جمل من مشايخ قرى حوران لنقل اثقاله من المزيروب الى المدينة المنورة (٢٨) . واستأجر اكثر من ذلك العدد في العام التالي (٢٩) .

وانفق امير الحج ، من المال المخصص للحج ، البالغ المرصدة الصر او الصرة التي كانت تدفع الى بعض القبائل البدوية على طريق الحج لشراء حمايتها . وقد حاول العثمانيون ، في مطلع حكمهم لبلاد الشام ، السيطرة على القبائل البدوية ، في جنوبي بلاد الشام ، ولكنهم فشلوا ، ولذلك لجأوا الى العادة القديمة بشراء رضى القبائل بالمال . ويذكر ان اسعد باشا العظم ، والي الشام (١٧٤٣ - ١٧٥٧) ، قد دفع الصر الى القبائل القوية على طريق الحج في حين انه فرض الضرائب على القبائل الصغيرة . وقد استثيرت القبائل الصغيرة فثارت لنفسها بمهاجمة قافلة الحج الشامي في عام ١٧٥٨ وابتدتها تقريبا ، وذلك في اعقاب عزل اسعد باشا عن ولاية دمشق (٣٠) .

وكان السلطان العثماني يرسل ، بمناسبة سفر قافلة الحج الشامي الى الحجاز ، اعطيات نقدية وعينية ، عرفت بالصر ، الى اشراف وعلماء وفقراء الاماكن المقدسة ، التي ضمت مكة والمدينة واحيانا القدس . وعهد السلطان بالصر الى موظف عرف بالصره اميني او امين الصرة . وكان الصرة اميني يغادر استنبول كل سنة في اواسط رجب متجها نحو دمشق وسط احتفالات شعبية ورسمية ، ويرافقه ، بالإضافة الى

حاشيته ، عدد من الحجاج للافادة من الحماية المؤمنة له . وطلب السلطان من حكام الولايات التي مر بها موكب الصرة اميني تأمين الحماية له ، كل في منطقته ، واعلام السلطان بذلك . ويصل الصرة اميني الى دمشق ، عادة ، في القسم الاول من رمضان ، وبفادرها ، بعد عودته من الحج باتجاه استانبول ، بين ١٥ صفر و ١٥ ربيع الثاني ، حسب الظروف (٣١) .

نقل الحجاج

مما يشير الاهتمام معرفة الطريقة التي تم بها نقل ما بين خمسة عشر ألفا، وعشرين ألف حاج ، بالإضافة الى القوات المرافقة لهم ، من دمشق الى الحجاز ، كل سنة ، وكذلك نقل القوات المرافقة للجردة من دمشق الى هدية . ان الحيوان الرئيسي الذي استخدم في عملية النقل كان الجمل . وقد اشتهرت قرى حوران ، التي كان سكانها بدوا أو من أصول بدوية ، بتوريد آلاف الجمال الى القائمين على شؤون القافلة مما سهل نقلها واتى بالفوائد المالية لاصحاب الجمال . وقام مشايخ قرى حوران بالنيابة عن سكانها بتأجير الجمال الى المسؤولين في دمشق . وذكرت وثائق دمشق الشرعية اسماء عدد من مشايخ هذه القرى تذكر منهم في الفترة بين ١١٧٤ - ١١٧٧/١٧٩٥ - ١٧٦٤ الشيخ شهاب الدين بن حمد الحتمل شيخ قرية الطره (أو الطرا) ، والشيخ أحمد بن عمر المحاميد والشيخ بكار بن موسى قطيفان شيخا قرية ادراعا (ترد ادراعات أو أذرعات وهي درعا اليوم) ، والشيخ ملحم بن ناصر الجبلاق شيخ قرية شمسكين أو أشمسكين (شيخ مسكين اليوم) ، والشيخ حمد بن علي الحريري شيخ قرية السعلية (أو السلعة) ، والشيخ دعبس بن حسين شيخ قرية الكرك، والشيخ حسن بن مقداد شيخ قرية بصير ، والشيخ عبد الله الشنور شيخ قرية اعجيم ، والشيخ راشد بن محمد الراشد شيخ قرية الحراك ، والشيخ رشيد بن علي الغزالي شيخ قرية الحراك الشرقي ، والشيخ منصور بن مصطفى حجار شيخ قرية السهوة ، والشيخ ابراهيم ابن الشيخ مصطفى الزعبي شيخ قرية البصيلة ، والشيخ ابراهيم بن الشيخ علي الزعبي شيخ قرية المسيفرة ، والشيخ محمد بن مصطفى شيخ قرية غوشه ، والشيخ سعيقان بن الشيخ محمد شيخ قرية صورا ، والشيخ محمد بن نصر الله شيخ قرية بصرة (بصرى) ، والشيخ حسن بن علي الغزالي شيخ قرية خربة الغزالة ، والشيخ ابراهيم الحريري وأحمد بن حمدان شيخا قرية منصورة ، والشيخ خليل العبادية بن ناصر شيخ قرية المحجي . وبرزت أيضا قرى عراضه وملجم وطفس في عملية تقديم الجمال . وشاركت كذلك ، في هذه الفترة ، طائفة السخانة من نواحي حماه . كما ان تجمعات قليلة اخرى ، مثل السردية وبني صخر وبني صقر ، زودت القافلة بالجمال في اوقات مختلفة . ويمكننا معرفة الطاقة الاقتصادية لكل قرية باجراء

مقارنة بين اعداد الجمال التي قدمتها القرى . وقد حضر مشايخ القرى ، الذين اجروا الجمال الى والي دمشق أمير الحج ، الى المحكمة الشرعية بدمشق لتسجيل واقعة التأجير وكيفية دفع الاجرة ، وتبرئة ذمة الوالي مما يستحق لهم عليه . وكانت اجرة الجمل الذي حمل أثقال الوزير من المزريب الى المدينة في عام ١١٧٥/١٧٦٢ مثلاً، ٣٣ قرشا ، ومن المزريب الى مكة ٦٥ قرشا . وكانت اجرة الجمل الذي حمل أثقال الجردة من المزريب الى هدية ، ومن هدية الى دمشق ٤٠ قرشا (٣٢) .

وقد وجدت طوائف حرفية خاصة في دمشق وحلب وغيرها لنقل الحجاج الى الحجاز . وبرز هذه الطوائف طائفة المقومين الدوجية . وكلمة الدوجية، أو الدعجية، المستخدمة بالتركية ، مشتقة من الكلمة العربية (يدعو) ، وتشير الى الذين يدعون الى الله . والمقوم هو الذي يتعهد بنقل الراغب بالحج من دمشق أو غيرها الى مكة المكرمة ، ويعيده ، بحسب الاتفاق ، الى مكان بدء الرحلة . ويركب المسافر في محارة ، وهي محمل من الخشب يغطى بالقماش ، وتتسع لراكب واحد . وتوضع اثنتان منها على ظهر الجمل ، كل واحدة من طرف . ولم يكن ضروريا وضع مسافرين على جمل واحد اذ وضعت أحيانا حمولة في الطرف الآخر . واستخدمت تسمية أخرى للمحارة، في دمشق وحلب ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهي الشقدوفة (٣٥) . واستخدمت كذلك كلمة محفة (٣٦) ، وهي تخت خشبي وضع على ظهر الجمل ، واستخدم لنقل الحجاج . ويبدو ان للمحفة ميزات خاصة ميزتها عن المحارة ، أو الشقدوفة ، بدليل ان امرأة في مدينة حلب دفعت لنقلها في محفة الى مكة ثم عرفات ، ذهابا وايابا ، مع تقديم الزاد والماء وسائر اللوازم لها ، مائة وسبعين قرشا (٣٧) ، وهي ما يساوي تقريبا اجرة شخصين يركبان المحارة ، مع الخدمات ذاتها. ولا ندرى اذا كان الركوب في المحفة يدل على الثروة والمكانة الاجتماعية ، ام على حالة مرضية . ويقدم المقوم للمسافر ، بالاضافة الى مكان جلوسه ، طعامه وماءه وما يلزمه .

وانتظام المقومين في طائفة لها شيخها يدل على اهمية هذه الحرفة ، وضرورة مراقبة افرادها ذاتيا وحرفيا ، من قبل شيخ الطائفة ، وبمعرفة القاضي الشرعي . وخوفا من تقصير المقوم (الدوجي) في خدمة زبائنه ، أو هربه في الطريق ، تعهد المقومون ، امام القاضي الشرعي ، قبل السفر الى الحج ، بانهم يضمنون بعضهم بعضا، فاذا اخل أحدهم بشروط العقد مع المسافرين ضمنه زملاؤه ، وضمن الجميع شخص واحد ، وذلك لحصر المسؤولية (٣٨) .

وساهمت طائفة العكامة في عملية نقل الحجاج ، ولكن دورها كان ثانويا اذا ما قورن بالمقومين الذين تعهدوا عملية النقل بكاملها . والعكام (٣٩) هو الذي يقود

الجمال ويخدم راكبيه(٤٠). وفي حين ان طائفة القوميين اختصت بنقل الحجاج فقط ، فان طائفة الكمامة استخدمت في مرافقة حيوانات النقل ، من جمال وغيرها ، في خدمات متعددة ، مثل نقل الذخائر بين حلب وبلاد الروم (٤١) ، او مرافقة المسافرين في انحاء الامبراطورية . وساهمت كذلك طائفة الجمالة في تقديم الجمال لاغراض الحج ولكنها لم تتدخل مباشرة بنقل الحجاج (٤٣) . وتقديم الجمال لاغراض الحج جزء من عمل هذه الطائفة الذي شمل ايضا تقديم الجمال للقيام بخدمات التحميل بصورة عامة . كما ان المشعلجية ، وهم حملة المشاعل ، رافقوا جماعات المسافرين .

واختلفت اسعار نقل الحجاج ، تبعا للخدمات المقدمة لهم . وقد قمنا بدراسة عينيتين : الاولى من حلب ، من حوالي منتصف القرن الحادي عشر الهجري ، والثانية من دمشق ، من حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري . ففي العينة الاولى تعاقد مسافر وامه ، في ١٦ شعبان ١٠٤٥ / ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٦ ، مع مقوم على ان يدفع له لقاء حملهما في محارتين من الخشب (شقدوفتين) ، ونقلهما من مدينة حلب الى مكة المكرمة ثم الى عرفات ، ثم الى مكة عودا ، صحبة الركب الشريف (اي قافلة الحج الشامي) ، المتوجه في ذلك العام الى الحجاز ، وتزويدهما « بجميع اكلهما ومايهما وزادهما وساير لوازمهما الضرورية التي لا بد منها في الطريق » اجرة قدرها مائة قرش مقبوضة من المتعاقدين « قبضا تاما سلفا ومعجلا » (٤٤) . ويبدو ان هناك تخفيضا لافراد الاسرة ، وربما روعي سن الاولاد ، بدليل ان الام وابنها في المثال السابق دفعا مائة قرش في حين ان امرأة من حلب تعاقدت بعد شهر من العقد السابق على ان تدفع للمسافة نفسها وللخدمات ذاتها سبعين قرشا (٤٥) . ويبدو ان دفع اجرة الذهاب والاياب معا كانت اكثر توفيرا لأن القوم يضمن العودة بدون شواغر . وكانت العادة ان يتخلف بعض الحجاج في الحجاز للمجاورة . وسواء كانت الرحلة للذهاب فقط ، ام للذهاب والاياب ، فقد دفعت الاجرة للمقوم على اقساط . وبقي احيانا جزء من الاجرة الى مابعد العودة . وعمد بعض الراغبين بالسفر الى الحجاز الى استئجار الجمال فقط بدون الخدمات الاخرى . وبلغت اجرة الجمال من حلب الى مكة ، ثم الى عرفات ، وعودا الى مكة ، في تلك الفترة ، اربعا واربعين قرشا ، مما يعني ان قيمة الخدمات ، بالمقارنة مع مثال الام وابنها ، بلغت ستا وخمسين قرشا . ويفترض ان صاحب الجمال المؤجرة رافقها الى الحجاز للعودة بها . واذا كان قد رتب مسبقا لايجارها من هناك فهذا يدل على تنظيم دقيق في النقل والمواصلات .

وفي العينة التي اخترناها من دمشق في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري نلاحظ ان اجرة نقل المسافر من دمشق الى مكة في شوال ١١٥٨ / تشرين الثاني ١٧٤٥ كانت سبعين قرشا (تفصيلها : اجرة جمل ٤٠ ، سقاية ماء ٥ ، ثمن

شقدوفة ٥ ، اجرة عكام ٥ ، اجرة حمولة وزنها ١٥ اوقه ١٥ قرشا) . ويبدو أن الاجرة لم تتضمن الطعام لأنه لم ينص عليه (٤٦) . وفي مثال آخر تعاقد رجل وامه ان يدفعوا اجرة نقلهما من مكة الى دمشق ، بما في ذلك كامل الخدمات ، مائتي قرش ، بمعدل مائة قرش للشخص مقسطة (تفصيلها : اجرة الجمل للشخص الواحد ٨٠ قرشا - من غير اجرة ابطال على الراكب أي بدون اجرة الحمولة - و ١٥ نظير اكله ، و ٥ لقاء سقايته) . وحين احتج الراكبان ، لدى وصولهما الى دمشق ، أن السعر مرتفع ، استدعى القاضي الشهود فشهدوا أن المائة قرش هي سعر المسلمين في سنة تاريخه ، فالزمهما القاضي بالدفع (٤٧) . وتؤكد هذه الاجرة امثلة أخرى من الفترة ذاتها (٤٨) . والملاحظ أن سعر العودة الى دمشق كان أغلى من سعر الذهاب ، وربما يفسر ذلك بعامل الاضطراب . كما انه بالمقارنة بين اسعار حلب ، في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ، واسعار دمشق ، بعد قرن من ذلك ، يتبين لنا تدني قيمة العملة ، وبالتالي ارتفاع الاسعار ، وهذا امر كان شائعا في الدولة العثمانية .

واذا ما أخذنا عينة من اسعار السلع الاستهلاكية (٤٩) ، واثمان العقارات (٥٠) ، ومستوى الارباح والاجور ، في تلك الفترة ، وقارناها مع تكاليف السفر الى الحج ، لتبين لنا أن كلفة الذهاب للحج لم تكن بقليلة على اصحاب الدخل المحدود . وحتى العلماء ، الذين كان وضعهم المادي احسن من غيرهم ، نظرا للوظائف الدينية المتعددة التي شغلوها والتي رصدت لها الاعتمادات من مال الوقف ، فقلما ذهب واحد منهم الى الحج أكثر من مرة بسبب النفقات الباهظة المترتبة على ذلك . وفي مقابلة بين عالم مصري وعالم دمشقي ، هو نجم الدين الفزي صاحب « الكواكب السائرة » ، في المدينة المنورة ، في اواسط محرم ١٠٠٢ / اواسط تشرين الاول ١٥٩٣ ، ذكر المصري انه حج اربعاً وعشرين مرة . فقال الفزي أن أهل الشام لا يكاد يحج الواحد منهم الا مرة . فأجاب المصري « الواحد منا يستأجر بعيراً بعشرة ذهب ويحمل تحته الفريقيشات والبصلات ويحج وانتم اذا حج الواحد منكم تكلف كلفة كثيرة تكفي عدة منا وطريقكم اشق من طريقنا والاجر على قدر النصيب » (٥٢) .

سفر القافلة

كانت قافلة الحج الشامي تغادر دمشق في موكب حافل (٥٣) ، يسير فيه الوالي - أمير الحج ، ويحمل فيه المحمل والصنjq ، وترافقه قوات كثيرة . وتم المغادرة ، في الغالب ، بين الثاني عشر والعشرين من شهر شوال . ويتوقف أمير الحج عند قبة الحج ، خارج باب أبوابية الله (سميت بذلك لانها تؤدي الى بلاد الله في الحجاز والقدس) ، بانتظار تجمع الحجاج . ويتباطأ هؤلاء في الخروج ، بسبب رغبة

بعضهم في مشاهدة موكب الحج ، أو لتوديع اقربائهم ، أو للقيام بالمشتريات في اللحظة الاخيرة ، ويكمل خروجهم خلال اسبوع . ومن قبة الحج تتوجه القافلة نحو المزييب (تبعد حوالي ١٠٣ كم جنوبي دمشق) بشكل متفرق ، لانه ليس ثمة من اخطار تجربها على التجمع . كما ان عددا من اقرباء الحجاج ومن الباعة يرافقون الحجاج الى المزييب . وبعد توقف ، يقارب الاسبوع ، في المزييب ، حيث يلتئم عقد الحجاج ، وتم الاستعدادات النهائية ، ويودع الراغبون من الحجاج ودائعهم في قلعة المزييب ، تنطلق القافلة ككل باتجاه الحجاز . ويعود الذين رافقوا الحجاج الى دمشق ، ويعرفون بالمزيباتية (٥٤) . ويرافق القافلة الى الحجاز قاض ، عرف بقاضي الركب الشامي ، لينظر في القضايا الطارئة . واختير عادة من بين نواب القاضي الحنفي بدمشق ، او من القضاة المتقاعدين ، او من العلماء المدرسين (٥٥) .

وقد اشير الى الطريق الرئيسي ، الذي سلكته القافلة من دمشق الى الحجاز ، بالطريق السلطاني . وتألف من عدة منازل (مفردها منزل أو منزلة) ، حيث يتوقف الحجاج للراحة ، والتزود بالماء ، وأحيانا بالمؤن . وضم الطريق السلطاني في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، المنازل التالية (٥٦) : قبة الحج ، المزييب ، المفرق ، الزرقاء ، البلقاء ، القطرانة ، الحسا (تابوت قره صى) ، العنزة ، معان ، ظهر العقبة (عقبة الحلاوة) ، جفيمان (المدورة) ، ذاتا حج ، القاع (قاع البسيط أو قاع الصغير) ، تبوك ، مغائر شعيب ، الاخضر (الاخضر) ، المعظم ، دار الحمراء (اقيرع أو مغارش الرز ، اوشق العجوز) ، مدائن صالح (ديار أو ابار ثمود أو الحجر) ، العلا ، المطران (بيار أو ابار الغم ، أو طوامير) بئر الزمرد ، شعب النعام ، هدية ، الفحلتن (النخلتين) ، وادي القرى ، الجرف ، المدينة المنورة ، قبور الشهداء ، الجديدة ، القاع ، رابغ ، قديد ، خليص ، عسفان ، وادي فاطمة ، مكة المكرمة . ولم تشمل هذه المنازل جميع الامكنة الصغيرة حيث توقف الحجاج في بعض الاحيان ، كما انه لم يكن من الضروري أن تتوقف القافلة في كل منها . واذا ما اراد البدو الاضرار بقافلة الحج ، دون الهجوم عليها ، لجأوا الى وضع الحشائش السامة ، مثل الحنظل ، أو بقايا الحيوانات المتفسخة ، في برك الماء ، في بعض المنازل . ولهذا اهتمت الدولة العثمانية ، منذ بدء حكمها في بلاد الشام ، ببناء القلاع في منازل الحج ، أو ترميمها ، أو تعزيزها بالحاميات لحماية القافلة (٥٧) . وقام ولاية دمشق ، على فترات ، ببناء ، أو ترميم ، القلاع ، ووضع الحاميات فيها (٥٨) . وقد عهدت الدولة العثمانية ، في بادئ الامر ، الى الجنود السباهيين . من اصحاب الاقطاعات بحماية القلاع (٥٩) ، ثم خلفهم الانكشارية ، وبخاصة البرلية منهم ، بعد عام ١٦٦٠ ، حين حل مكانهم ، في حماية القلعة وسور وابواب

دمشق ، الانكشارية القابي قول (٦٠) . واضطرت القافلة ، أحيانا ، في طريق العودة الى دمشق ، الى التخلي عن الطريق السلطاني ، لتحاشي هجمات البدو عليها ، أو لانقاذ ما يمكن انقاذه في اعقاب الهجوم عليها . وحولت طريقها ، بعد منزلة ذات حج ، الى غزة ، حيث يمر الطريق التجاري المتجه من دمشق الى مصر ، وكان أكثر أمنا . وعرف هذا بالطريق أو الدرب بالغزاوي (٦١) . واقتضت العودة عن هذا الطريق تأخر وصول القافلة الى دمشق الى ما بعد النصف الأول من صفر ، وهو الموعد العادي لعودتها في الطريق السلطاني . واذا هدد الجردة ، التي كانت تخرج لاستقبال القافلة ، خطر مماثل عادت هي الأخرى على الطريق الغزاوي .

وسبق عودة القافلة الى دمشق وصول جوquدار (٦٢) الحج اليها ، مرسلا من قبل أمير الحج ، لابلأغ الدمشقيين بسلامة القافلة . وغالبا ما أرسل الجوquدار من معان ، حيث دخلت القافلة منطقة الامان . ويصل الجوquدار الى دمشق ، في العادة ، في أواخر شهر محرم (٦٣) . وخلال أسبوع من وصول الجوquدار يصل دمشق كتاب الحج حاملا رسائل الحجاج الى ذويهم ، وتوزع الرسائل في الدرويشية . ويرسل الكتاب في الغالب ، من منزلة القطرانة . ويحمل كتاب آخرون الرسائل الى حماه وحلب (٦٤) . أما الحجاج الاروام فانهم يرسلون المكاتيب الى استانبول لدى وصول القافلة الى منزل ظهر العقبة (٦٥) .

وتصل طلائع الحجاج العائدين الى دمشق خلال أسبوع من وصول الكتاب اليها ، أي في النصف الأول من شهر صفر ، ويستبقون بذلك وصول المحمل وأمير الحج بحوالي اسبوع ، وهي المدة نفسها تقريبا بين خروج المحمل من دمشق الى قبة الحج ، في الطريق الى الحجاز ، ولحاق آخر الحجاج به . ويتوقف أمير الحج العائد في قبة الحج ، حيث يستقبله اعيان دمشق (٦٦) .

أما المدة التي استغرقته قافلة الحج الشامي في الوصول الى مكة من دمشق ، فكانت حوالي خمسة وثلاثين يوما (٦٧) . واستغرقت المدة ذاتها تقريبا في طريق العودة (٦٨) . وقد قدر أحد الحجاج ساعات السفر التي اقتضاها الوصول الى مكة من دمشق بـ ٤٩٠ ساعة (٦٩) ، وقدّر آخر ساعات العودة بـ ٥٠ ساعة (٧٠) . وهذا يعني ان القافلة كانت تسير بين ١٣ - ١٤ ساعة في اليوم .

أهمية قافلة الحج الشامي :

لعبت قافلة الحج الشامي ، في العهد العثماني ، دورا هاما ، سواء بالنسبة

لدمشق وبلاد الشام بخاصة ، أو العالم الاسلامي بعامة . وزاد من أهميتها ، آنذاك ، كونها واحدة من قافلتين رئيسيتين سمحت بهما ، وبالتالي تبنتهما ونظمتها ، الدولة العثمانية ، في العالم الاسلامي . وتجلت أهمية قافلة الحج الشامي ، بالإضافة الى الناحية الدينية ، في النشاط الاقتصادي الذي رافقها ، وأهم من ذلك في التمازج السكاني والثقافي الذي سهلت تحقيقه الى حد كبير .

وكان سفر القافلة مناسبة هامة لانتقال البضائع ، سواء منها التي حملها الحجاج أنفسهم ، أو تلك التي حملها التجار بكميات كبيرة (٧١) . وقد حرص التجار على مرافقة القافلة للاستفادة من الحماية العسكرية التي تمتعت بها . وانضمام التجار الى قافلة الحج زاد في اعدادها ، وفي المخاطر التي تعرضت لها ، لان كثرة البضائع أغرت القبائل الناقمة على مهاجمتها . وقد أفادت دمشق ، وحوارن بصورة خاصة ، وحلب الى حد ما ، من تقديم الخدمات للقافلة . ففي دمشق نشطت صناعة البكسماد السفري الذي تمونت به القافلة ، وانعكس ذلك على نشاط الطائفة الحرفية الخاصة بالبكسمادية . وبلغت مبيعاتها أثناء موسم الحج آلاف القناطير (٧٢) . ونشطت طائفة البكسمادية ايضا في حلب ، بمناسبة موسم الحج . وأفادت كذلك طائفة العكامين ، الذين يقودون الجمال ، والمحارية ، الذين يصنعون المحارة (الشقدوفة) . وسبقت الاشارة الى الفوائد التي جناها مشايخ قرى حوارن ، وبدرجة أقل ، مشايخ البدو في منطقة حماه وحلب ، من تأجير الآلاف من جمالهم لنقل الحجاج والقوات والبضائع المرافقة للقافلة .

وقد اشارت المصادر الى انواع البضائع وكمياتها التي حملها الحجاج معهم . وضمت البضائع ، بصورة رئيسية ، الاحجار الكريمة والقهوة والمنسوجات والتوابل . وقد عبر البديري عن النشاط الاقتصادي الذي عم دمشق ، في أعقاب وصول الحجاج الاعجام اليها في عام ١١٦٤ / ١٧٥١ ، بقوله : « وصار جبر خاطر لعموم الناس في البيع والشراء وجاء مع العجم ربيات ذهب كل واحدة بثلاثة عشر قرشا ولؤلؤ كبير وصغير واحجار ومعادن وشال وغير ذلك » (٧٣) . وحمل الحجاج الاروام معهم ، الى الشام والحجاز ، انواعا من السلع ، اشارت احدى الوثائق الشرعية الى بعضها ، في عام ١١١٩ / ١٧٠٧ ، بأنها عدة أحمال من الشال والزعفران ، بلغت قيمتها عدة آلاف من القروش . وقد جاء ذكرها بمناسبة هجوم قطاع الطريق ، في ناحية السويدية ، التابعة لحاكم حماه ، عليها . وغرم هذا الحاكم بثمن المسروقات لأنه مسؤول قانونيا عن الأمن في منطقته (٧٤) .

وكانت قافلة الحج العائدة من الحجاز تحمل عدة سلع منها السنا (٧٥) ، وهو

نبات ملين اشتهرت به منطقة مكة ، فعرف بالسنامكة . واشهر ما أتت به القافلة من منتجات الجزيرة العربية هو البن . ورغم أن اليمن هي التي اشتهرت بانتاج البن الا انه أشير اليه في المصادر المحلية بالبن الحجازي ، ربما لأنه شري في الحجاز (٧٦) . وبلغت كمية البن المستورد من الحجاز ، في عام ١٧٤٦ ، مثلا ، ستمائة كيس أدى طرحها في السوق الى هبوط سعر البن في بلاد الشام (٧٧) . ويدل هذا على شيوع شرب القهوة محليا (٧٨) . وحملت قافلة الحج، كذلك، المنسوجات والتوابل والعمود والاحجار الثمينة المستوردة من الهند عبر البحر الاحمر الى جدة ومنها نقلت الى مكة (٧٩) .

ويتبين لنا مدى مساهمة قافلة الحج الشامي في التجارة الدولية مما رافق القافلة ، التي عادت الى دمشق من الحجاز بتاريخ ٢٨ آذار ١٨٤٢ ، من بضائع . فقد ضمت ٢٢٥ حملا من الحناء زنتها ٢٢٥٠ رطلا (حوالي ١٤٥٠٠ كغ) ، سعرها ١٢٠٠٠٠ قرش ، وأربعين حملا من البن الحجازي Moka coffee (٨٠) (كانت في الاساس تسعين حملا ، ولكن سرق منها خمسون حملا في الطريق وزن ٤٠٠٠ رطل قيمتها ١٤٠٠٠٠ قرش) ، وعشرين حملا من نسيج هندي يصلح للعمائم ، يتألف كل حمل من بالتين ، تضم الواحدة منها مائة قطعة ، ثمن القطعة ٢٠٠ قرش ، ومجموع ثمنها ٨٠٠٠٠٠ قرش . وقدرت قيمة المجوهرات التي حملتها تلك القافلة بـ ١٠٠٠٠٠٠ قرش . واشتملت البضائع ايضا على ريش النعام ، وقيمه ١٧٠٠٠٠٠ قرش ، وعلوات ثمنها ١٦٠٠٠٠٠ قرش ، ومتفرقات قيمتها ٦٠٠٠٠٠ قرش . وبلغ مجموع قيمة البضائع التي حملتها تلك القافلة ٣٨٧٠٠٠٠٠ فرنك أو ما يعادل ١٨٥٠٠٠٠٠٠ قرش (٨١) .

وقد تأثرت تجارة قافلة الحج الشامي بازدياد استخدام الحجاج الاروام للطريق البحري الى الحجاز ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، وذلك لاسباب امنية واقتصادية . كما ان عددا متزايدا من الحجاج الاعجام بدأ يسافر بحرا من الخليج العربي الى جدة (٨٢) . وذكر القساطلي ، الذي عاصر هذه التطورات في دمشق ، في السبعينات من القرن التاسع عشر ، أن « أول نكبة دهمتها (اي دمشق) تسببت عن سير سفن البخار في البحار . . . وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظيمة وطامة كبرى على تجارة دمشق لانها سلبت كل ما بقي لها من التجارة البرية وفتحت بابا قريبا للحجاز فامتنع الحجاج من الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها فيها ذهابا وايابا » (٨٣) .

وعلى صعيد آخر أدى التنوع في جنسية الحجاج الذين اموا دمشق للالتحاق

بقاflتها ، وبقاء بعضهم للعيش والعمل فيها ، الى تعدد الاقوام في دمشق . وكثيرا ما اقام هؤلاء في احياء خاصة مثل حي الخراب والسويقة بالنسبة للحجاج الاعجام ، او في زوايا تحمل اسمهم ، مثل زاوية المغاربة (٨٥) ، وزاوية الهنود ، القائمة ظاهر دمشق ، بمحلة السويقة ، والتي تولى امرها هنود (٨٦) . وذكرت زاوية السنود ، بمحلة الهنود بدمشق ، بمناسبة تعيين الشيخ محمد بن محمد السندي في وظيفة الائمة فيها (٨٧) . وربما كانت التسميتان (زاوية الهنود وزاوية السنود) ، اللتان ذكرتا بفصل خمس سنوات تشيران الى زاوية واحدة ووجدت كذلك زاوية للموصلين بمحلة ميدان الحصى ، تعاقب على مشيختها اناس من اصل موصللي (٨٨) .

وقد رغب عدد من المسلمين الاغراب الائمة في دمشق سواء منهم الذين قدموا اليها بمناسبة الحج ، او الذين قصدوها خصيصة بهدف المجاورة لبعض الوقت او للائمة فيها كنزلاء . واجتذبت دمشق ، بصورة خاصة ، العلماء والمتصوفة بسبب شهرة ما ضمته من اماكن دينية . ونظرا لكثرة الاغراب الذين دفنوا فيها ، وبخاصة من الحجاج ، فقد خصص مكان لدفنهم ، عرف بمقابر الغرباء ، في تربة مرج الدحداح (٨٩) ، وقد جاء ، مثلا ، في احد سجلات القسّام المدني (يشار اليه ايضا بالعربي) ، الذي نظر في مخلفات المتوفين في دمشق ، في الاعوام ١١٦٣ - ١١٦٦ هجرية ، ذكر خمسة وسبعين غربيا ، معظمهم من الحجاج الاروام ، دفنوا في دمشق ، اما العلماء الاغراب فقد دفنوا في الغالب حيث دفن علماء دمشق (٩٠) .

وقد اغنيت الحياة الثقافية في دمشق بتوافد العلماء اليها بمناسبة الحج ، واقامة بعضهم فيها . وكثيرا ما حدثت المناظرات بين العلماء الزائرين والعلماء المقيمين ، مثال ذلك زيارة عبد الله السويدي البغدادى لدمشق بين ٢٢ شعبان و ٢٠ شوال ١١٥٧ / ٣٠ ايلول و ٢٦ تشرين الثاني ١٧٤٤ ، بمناسبة سفره للحج ، ووصفه الجو الاجتماعى في دمشق ومناقشاته مع علمائها (٩١) .

وقد شغل عدد من نزلاء دمشق مراتب عليها فيها ، سواء في الائمة او في التدريس ، على اختلاف مستوياته (٩٢) ، بما في ذلك تدريس الحديث تحت قبة النسر في الجامع الاموي ، في اشهر رجب وشعبان ورمضان ، وهو من ارفع مراتب التدريس (٩٣) ، واقام النزيل ، او المجاور ، عادة ، في حجرة في مدرسة او في جامع (٩٤) واذا ما تزوج سكن في دار (٩٥) ، واذا لم يكن النزيل عربى اللسان امكنه تعلم العربية بدمشق (٩٦) ، واستغل العلماء المحليون وجود العلماء الاغراب في دمشق ، بمناسبة الحج ، فحصلوا منهم على الاجازات فيما اختصوا به من علم (٩٧) . وافاد العوام ، كذلك ، من العلماء النزلاء الذين كانوا بمستوى معرفتهم . وقد وصف احد هؤلاء

العلماء بأنه « يتكلم على الحقيقة ولا يعرف الشريعة وكان لكثير من الناس فيه كبير اعتقاد » (٩٨) .

ورغم ان مناسبة الحج كانت فرصة هامة لتبادل الآراء بين العلماء الإغراب والمحليين ، وللتعليم والتعلم في آن ، فقد ساعد ذلك أيضا على نشر التصوف والطرق الصوفية . ولعل خير مثال ، في هذا المجال ، هو نشر الطريقة النقشبندية في دمشق ، في أواخر القرن السابع عشر ، على يد جد الاسرة المرادية ، السيد مراد المرادي ، الذي ام دمشق بمناسبة الحج ، واهتم بنشر هذه الطريقة في دمشق ، وتابع عمله من بعده ابنه السيد محمد . واصل الاسرة المرادية من بخارى ، ولكن الطريقة النقشبندية التي نشرها تنتسب الى الشيخ احمد الفاروقي ، الذي اقام في الهند ، واشتهر بالمجدد (٩٩) . ولو ام يكن المناخ مهيئا في دمشق لنشر هذه الطريقة وغيرها لما شابت بين الناس ولا ام دمشق عدد من الهنود النقشبندية آنذاك (١٠٠) . وانتشرت طرق صوفية عدة في دمشق ، في العهد العثماني . وانتسب الناس الى اكثر من طريقة . وإفاد انتساب العلماء الى الطرق الصوفية بأن رفع من مستواها وازال منها كثيرا من تطرفها ، كما انه عزز الروابط بين افراد الطريقة الواحدة ، دون ان يوجد حساسيات قاتلة بين الطرق ، لانها لم تكن عقائدية متعمقة ، وانما ذات شعائر اجتماعية متقاربة .

ورغم انه لم يقم أي سلطان عثماني باداء فريضة الحج ، بما في ذلك السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي أعلن نفسه خليفة المسلمين ، ربما لاسباب امنية ، فقد اهتم العثمانيون بتأمين سلامة قافلة الحج ، بوصفهم حماة الحرمين الشريفين ، طوال القرون الاربعة التي حكموا فيها بلاد الشام .

* * *

المراجع

(١) انظر : محمد بن عيسى بن كتان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر الف ومئة ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، ارقامها : 9479, We. (II) 1114, 9480, We. (II) 11150
ج ٢ ، الاوراق ١٧١ ، ١٨٠ ، ١٢٥ ب ، ١٤٧ ، ١٦٢ ، ١٧١ ب ، د. صلاح الدين المنجد ، ولاية دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٧ ، حقق فيه : التباشات والقضاة ، لمحمد بن جمعة ، والوزراء الذين حكموا دمشق ، لرسالة القاري ، ص ٢٢ ، ٥٢ ، أحمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ - ١٧٤١/١١٧٥ - ١٧٦٢ ، تحقيق د. أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٠ ، ١١٥ ، ١٦١ ، ١٧١ .

(٢) سكن هذه المناطق ، قبل العثمانيين ، الروم البيزنطيون . وقد اشار العرب ، منذ الفتوحات الاولى ، الى البيزنطيين باسم الروم . وحين زال الحكم البيزنطي عن الاناضول ، وحل محله حكم السلاجقة ، ثم العثمانيين ، فقد تعبير « روم » مدلوله السياسي ، ولكنه لصق بالمنطقة من ناحية جغرافية . لذلك اشار العرب الى سلاجقة قونية بانهم سلاجقة الروم ، والى العثمانيين بانهم روم ، والى سلطانهم بانه ملك ، ثم سلطان ، الروم .

(٣) البديري ، ص ١٧٦ .

(٤) ابن كتان ، ج ١ ، ١٤١ ب .

(٥) البديري ، ص ١٧١ .

(٦) البديري ، ص ١٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٨) انظر :

C.F. Chasseboeuf Comte de Volney, *Voyage en Egypte et en Syrie*, ed. J. Gaulmier, Paris, 1959, P. 253.

(٩) انظر :

Public Record Office (P R O), London, State Papers (SP) 97/38: Istanbul (date of despatch) 3. 12. 1757.

Volney, p. 322

(١٠) انظر :

(١١) انظر :

Lettres édifiantes... de la Compagnie de Jésus (Jesuits), 34 Vols., Paris, 1707- 73, P. 444.

(١٢) انظر كتابنا :

The Province of Damascus, 1723-1783, Khayats, Beirut, 2nd ed. 1970. P. 61.

(١٣) انظر :

Affaires Etrangères, Correspondance Commerciale (Quai d'Orsay), Damas
2, 16 Mars 1847.

AE. CC. Damas 5, 19 Janvier 1870.

(١٤) انظر :

(١٥) محمد بن طولون ، اعلام الوري بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد
احمد دهن دمشق ١٩٦٤ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٥ .

(١٦) انظر تفاصيل ومصادر هذه المعلومات في كتابنا : بلاد الشام ومصر (١٩٧٨-١٥١٦) دمشق
١٩٦٨ ، ص ١٥٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ .

(١٧) انظر تفاصيل ذلك في كتابنا : بلاد الشام ومصر ص ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢٢٥ - ٢٣١ .

(١٨) محمد خليل المرادي ، مطمح الواجد في ترجمة :الوالد الماجد ، مخطوطة في المتحف البريطاني
بلندن ، رقم ٤٠٥٠ ، OR ، الاوراق ، ٢٦ ب - ٢٧ ا .

(١٩)

R. Tresse, Le Pèlerinage Syrien aux Villes Saintes de l'Islam, Paris, 1937,
PP. 85, 88.

(٢٠) انظر تفاصيل اخرى عن الجردة في كتابنا :

The Province of Damascus, PP. 65-68.

(٢١) حيدر احمد شهاب ، تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي ، نشر نوم مقيب ، القاهرة ،
١٩٠٠ - ١٩٠١ ، ص ٦٧٧ - ٦٧٩ - ٦٨٣ - ٦٨٤ ، الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان من
ابناء الزمان ، صدر منه جزءان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ - ١٩٦٦ ، ج ١ ، ٢٠٥ .
(٢٢) البديري ، ص ٤٢ - ٤٦ .

(٢٣) المرادي ، مطمح الواجد ، الاوراق ، ١٤٢ - ١٤٣ ب .

(٢٤) المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢٥) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٢ شوال ١١١٩ / (٢٥ كانون الاول ١٧٠٨) .

(٢٦) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٧٥٣ ، محرم ١٠٤٥ / (٢٠ حزيران ١٦٣٥) .

(٢٧) انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣-
١٢٧٧/١٨٥٧ - ١٨٦١ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، نيسان ١٩٨٠ ، ص
٨٠ - ٨١ .

(٢٨) سجل دمشق ، رقم ١٦٩ ، ص ٢٩١ ، ٢٠ جمادى الاولى ١١٧٤ / (٢٨ كانون الاول ١٧٦٠) .

(٢٩) سجل دمشق ، رقم ١٧٤ ، ص ٦٠ ، ختام شعبان ١١٧٥ / (٢٥ اذار ١٧٦٢) ، ص ٦١ ، ٦٠
رمضان ١١٧٥ (٣١ اذار ١٧٦٢) .

(٣٠) انظر وصفا دقيقا لهذا الهجوم في كتابنا :

The Province of Damascus, Pp, 213-222.

(٣٢) سجل دمشق رقم ١٧٤ ، ص ٦٠ ، ختام شعبان ١١٧٥/ (٢٥ آذار ١٧٦٢) ، ص ٦١ ، ٦ رمضان ١١٧٥/ (٢١ آذار ١٧٦٢) .

(٣٣) انظر حول هذه الطائفة في دمشق ، في القرنين التاسع عشر والعشرين ، قاموس الصناعات الشامية ، في جزأين ، الجزء الاول ، تاليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تاليف جمال الدين القاسمي و خليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر موتون وشركاه ، باريس - لاهاي ، ١٩٦٠ ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

(٣٤) انظر حول المحاري الذي يصنعها ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٣٥) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٨١ ، ١٦ شعبان ١٠٤٥ / (٢٥ تشرين الثاني ١٦٣٦) ، سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٢٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨ / (٦ تشرين الثاني ١٧٤٦) .

(٣٦) سجل حلب رقم ٢٢٢ ص ١٢٥ ، ٤ شوال ١٧٠٥/ (كانون الثاني ١٦٤١) .

(٣٧) المصدر السابق .

(٣٨) سجل دمشق ، رقم ١٧٤ ، ص ٥٠ ، ١٩ شعبان ١١٧٥/ (١٥ آذار ١٧٦٢) .

(٣٩) انظر حول تعريفه : قاموس الصناعات الشامية ، ج ٢ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤٠) سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨/ (٦ تشرين الثاني ١٧٤٥) .

(٤١) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٠٩ ، ١٧ صفر ١٠٤٦/ (٢١ تموز ١٦٣٦) .

(٤٢) انظر ، مثلاً ، سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ١٤٨ ، ٢٩ ربيع الاول ١٠٢٧/ (٢٦ آذار ١٦١٨) .

(٤٣) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٢ شوال ١١١٩/ (٧ كانون الثاني ١٧٠٨) .

(٤٤) سجل حلب رقم ١٥ ، ص ٧٨١ ، ٦ اشعبان ١٠٤٥/ (٢٥ كانون الثاني ١٦٣٦) .

(٤٥) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٨٨ ، ٢٢ رمضان ١٠٤٥/ (٢٩ شباط ١٦٣٦) .

(٤٦) سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨/ (٦ تشرين الثاني ١٧٤٥) .

(٤٧) سجل دمشق ، رقم ١٢٢ ، ص ١٥٠ ، ٦ صفر ١١٥٩/ (٢٨ شباط ١٧٤٦) .

(٤٨) انظر مثلاً ، سجل دمشق رقم ١٢٤ ، ص ٢ ، ٥ صفر ١١٥٩/ (٢٧ شباط ١٧٤٦) .

(٤٩) قدر البديري (ص ٨١ - ٨٢) ان رطل الخبز الجيد في عام ١١٥٩ هـ ، بيع بسبع

مصري ، والرديء بخمسة مصري ، ورطل الارز بعشرة مصري ، ورطل اللحم بنصف قرش ، ورطل المسل بقرش ونصف ، ورطل الباذنجان بشمانية مصري ، واذا اعتبرنا ان الرطل الدمشقي انذاك قدر بـ ٨٥٠ دراهم (انظر : فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة د. كامل المسلي ، منشورات الجامعة الاردنية عمان ، ١٩٧٠ ، ص ٣٣) وان القرش يعادل اربعين مصرية ، لتبين لنا مقدار القيمة الشرائية لكلفة السفر الى الحج انذاك ، وهي مائة قرش .

(٥٠) بيعت دار في عام ١١٥٩ هـ بدمشق بمحلة باب السريحة بزقاق العلواني تابع زقاق الوسطاني ، تشتمل على ساحة سماوية ، وبركة ماء ، يجري اليها من نهو قنوات ، وايوان ومربع ، وقبة تملؤها طبقة ومطبخ ، ومشرقة ، بـ ١٧٥ قرشا (سجل دمشق ، رقم ١١٥ ، ص ٨٠٨ ، ربيع اول ١١٥٩/ (٢١ آذار ١٧٤٦) .

وبيعت دار اخرى ، ظاهر دمشق ، بمحلة الشاغور البراني ، بزقاق التجوزة تشتمل على ساحة سماوية ، ومربع ، ومرفق بـ ٧٠ قرشاً (سجل دمشق ، رقم ١١٨ ، ص ١٢٥ ، ٥ ربيع الاول ١١٦٠ (١٧ اذار ١٧٤٧) . وكانت اجرة حمام الورد ، بسوق ساروجا ، ستة عشر قرشاً في الشهر (سجل دمشق رقم ١١٨ ، ص ٥٦ ، ٢ ذي الحجة ١١٥٩) / ٣ كانون الثاني ١٧٤٧ .

(٥١) ذكر ان سمنا ، ينفق على عياله ، لم يستطع دفع مبلغ ٤٠٠ قرش من الديون بدمته ، واعلن اعساره في المحكمة (سجل دمشق ، رقم ١٤٢ ، ص ٢٣ ، ١٠ ربيع الاول ١١٦٤ / ٦ شباط ١٧٥١) . وبلغ ما تقاضاه السيد حسن بن السيد علي البرهاني عن وظيفة الامامة والتعليم وقراءة جزء شريف بمسجد المرحوم محمد الجليلي الفرمانى ، بالقرب من تحت القلعة بدمشق ، عشرة دراهم عثمانية في اليوم (سجل دمشق ، رقم ١١٥ ، ص ١٥٢ ، ٢٦ شعبان ١١٥٩ / ١٢ ايلول ١٧٤٦) أي ما يعادل ثلاث مئريات وثلاث في اليوم وغالباً ما قام العالم بعدد من هذه الوظائف في اليوم . وكانت نفقة الوالد ، انذاك ، مصريتين في اليوم .

(٥٢) نجم الدين الفزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، (وهو ذيل الكواكب السائرة) ، مخطوط في الظاهرية رقم ٤١ ، الاوراق ، ١٩٩ بـ ١٢٠٠ وقد روى هذه الواقعة : محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، اجزاء ، القاهرة ١٨٦٩/١٢٨٤ ج ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٥٣) هناك وصف لموكب الحج في دمشق في كتاب محمد بن عيسى بن كنان الصالحى ، المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية ، مخطوط في برلين ، برقم : 6088. We. 1166 وتوجد عنه نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق. ونشر صفحات منه: محمد احمد دهمان، اعلام المورى، ص ٢٩٨ .

(٥٤) انظر : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ب ، ١٦٩ ب ، البديري ، ص ٣١ .

(٥٥) المحبي ، ج ١ ، ص ١٣ ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ، ج ٤ ، ص ٦٢ ، المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٥٦) اسماء هذه المنازل مبنية على المصادر التالية : ابراهيم الخياري ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، مخطوط في مجموعة برلين برقم 6135, We. (I) 125 (وصف طريق الحج في ١٠٨٠ هـ) ، عبد الفنى النابلسي ، كتاب الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، مخطوط في جامعة كيمبردج برقم Q q. 30٧ (وصف طريق الحج في ١١٠٥-١١٠٦ هـ) مرتضى بن علوان ، (وصف طريق الحج في عام ١١٢١ هـ) مخطوط في مجموعة برلين برقم 6137. We. (II) 1860 عبد الله السويدي ، النفحة المسكية في الرحلة المكية ، مخطوط في المتحف البريطاني ، برقم Add. 23, 385 (وصف طريق الحج في ١١٥٧ هـ) عثمان (٩) (وصف طريق الحج في عام ١١٥٦ هـ) ، مخطوط في مجموعة برلين 6147. Pm (II) 105 ووصف محمد ادب باللغة التركية ، طريق الحج في عام ١١٩٣ هـ ، بين استانبول ومكة ونشرت اجزاء من مؤلفه باللغة الفرنسية ، انظر :

M. Bianchi, Itinéraire de Constantinople à la Mecque (Extrait de l'ouvrage Turk intitulé Kitab Menassik El-Hadj), for Muhammad Adib b. Muhammad Darwish, Paris, 1825.

(٥٧) ابن جعدة ، تحقيق المنجد ، ص ١١ - ١٢ ، الفزي ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

(٥٨) المرادي ، سلك الدرر ج ٣ ، ص ١٦١ ، مطمح الواجد ، ٢٦٢ ، القاري ، تحقيق المنجد ، ص ٩٣ .

محمد ادب ، مناسك ، ص ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ .

- (٥٩) الفزي ، الكواكب السائرة ، ج٣ ، ١٥٧ .
 The Province of Damascus. 32: (٦٠) انظر كتابنا :
 (٦١) ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ص ١١ - ١٢ .
 (٦٢) الكلمة فارسية الاصل واشار بعض الاخباريين الدمشقيين الى الجوخدار باسم نجاب ، انظر مثلا ، ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، الاوراق ، اب ، ١٨ ، البديري ١٦ ، ٣٦ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ .
 (٦٣) ابن كنان ، ج ٢ ، الاوراق ١ ب ، ٢٨ ، البديري ١٦ ، ٣٦ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ .
 (٦٤) البديري ، ١٩١ .
 (٦٥) محمد اديب ، ٤٨ .
 (٦٦) ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج٢ ، الاوراق ، ١٦٧ ب ، ١٧٤ ب ، النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ٢٨٥ ، حسن الشهير بابن الصديق ، غرائب البدايع وعجائب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 202 (II) 8163. We. الورقة ١٤ .
 (٦٧) السويدي ١١١٤ ، ١١٢٩ ، محمد اديب ، ٣٩ - ٨٦ ، وقد Volney, 322 المدّة باربعين يوما .
 (٦٨) النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ٣٤٤ ب ، ٣٧٣ ب ، ٣٨٥ .
 (٦٩) محمد اديب ، ٧٧ .
 (٧٠) عثمان ، ٢٨٤ ب .
 (٧١) انظر ، مثلا ، البديري ، ٣٦ ، ٣٧ ، ١٦١ .
 (٧٢) انظر مثلا ، سجل دمشق ، رقم ٢٣ ، ص ٩٦ ، ١٢ شوال ١١١٩ / (٦ كانون الثاني ١٧٠٨) ، ورقم ٤٥ ، ص ١٤٩ ، ٢٠ ربيع الاول ١١٤٠ / (٥ تشرين الثاني ١٧٢٧) .
 (٧٣) البديري ، ص ١٦١ .
 (٧٤) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٨٢ ، شعبان ١١١٩ (٣ تشرين الاول ١٧٠٧) .
 (٧٥) سجل دمشق ، رقم ١٧١ ، ص ٣٧٩ ، ١٢ صفر ١١٧٦ (٢ ايلول ١٧٦٢) .
 (٧٦) سجل دمشق ، رقم ١٣٦ ، ص ٣٧ ، ١٧ محرم ١١٦٣ (٢٧ كانون الاول ١٧٤٩) ، ورقم ١٤٢ ، ص ١٩٤ ، ١٦ شعبان ١١٦٤ (١٠ تموز ١٧٥١) .
 (٧٧) انظر : PRO. SP. 110/25, Pt. II.: Aleppo, 19,10,1726; volney, P. 323 .
 (٧٨) يذكر ان مبتكر شرب القهوة في اليمن هو ابو بكر الشاذلي الميبروسي (المتوفى اوائل ٩٠٣ هـ / اواسط ١٤٩٧) الذي مر بشجرها هناك واقتات من ثمرها فوجد فيه تخفيفا للدماغ واجتلابا للسهر وتنشيطا للعبادة (الفزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ١٣٣ - ١٣٤) . وقد ادخل شرب القهوة الى دمشق في صفر ٩٤٧ / حزيران تموز ١٥٤٠ (الفزي ، الكواكب السائرة ج ٢ ، ١٩٨) . ثم نوّدي بابطالها في ٧ ربيع الاول ٩٥٣ / ٨ ايار ١٥٤٦ (الفزي ، الكواكب السائرة ، ج ٢ ، ٣٩) . وقد شاع شرب القهوة في بيوت القهوة (المقاهي) بدمشق ، في الربع الاخير من القرن العاشر اي القرن السادس عشر (الفزي ، الكواكب السائرة ج ٣ ، ٢٠٥ ، ٣٦ ، ٢٢ ، المحبي ، ج ١ ، ١٦٦ ، ٣٠٢ ، ٤٢٠ .
 (٧٩) PRO. SP. 97/39: Istanbul, 23,12 1757; AE. B' 1040. Seyde; 11.10.1783

(٨٠) كلمة Moka تشير الى مخافي اليمن .

AE. CC. Damas I, 30 mars 1842.

(٨١) انظر :

(٨٢) انظر بحثنا التالي الذي القيناه في المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي الاجتماعي لتركيا ،

المنعقد في جامعة ستراسبورغ ، (١ - ٥ تموز ١٩٨٠) .

« The impact of Europe on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 » , a paper submitted to the IIe Congrès international d'Historiographie Economique et Sociale de la Turquie , Economie et Sociétés dans l'empire Ottoman, fin du XVIIIe - début du XXe siècle » Strasbourg, 1er - 5 Juillet - 1980.

(٨٣) نعمان القساطلي ، الروضة الفناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٩ ، ص ١٢٤ .

(٨٤) ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، المرادي ، مطمح الواجد ، ج ١ ، ص ١٤٣ . انظر ايضا

البديري ، ص ١٧١ ، الذي ذكر السوق الى جانب حي الخراب .

(٨٥) بنيت في عام ١٢٩٩/٨٠٢ - ١٤٠٠ ، وهي شمالي جامع الجراح في باب الصغير ، عرفت

ايضا بزاوية الوطنية نسبة الى علي الشهير بابن وطية الذي انشأها (ابن طولون ، اعلام الوري ، تحقيق

الدهمان ، ص ١٠٢ ، النجد ، ولاية دمشق ، ص ١٠٠) .

(٨٦) سجل دمشق رقم ١٢٤ ، ص ١٩٢ ، ١٦ رمضان ١١٥٩ (٢ تشرين الاول ١٧٤٦) .

(٨٧) سجل دمشق ، رقم ١١٠ ، ص ٢٠ ، ١٠ هادي الاول (٢٤ تموز ١٧٤١) .

(٨٨) المحبي ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٨٩) المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٩٠) انظر مثلا : المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٩١) النفحة المسكية ، ١٩٤ ، ص ٩٤ ب .

(٩٢) انظر مثلا : المرادي سلك الدرر ، ج ٣ ، ص ٩ .

(٩٣) انظر مثلا : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ، ج ٤ ، ص ٢٦٥ .

(٩٤) المحبي ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ص ٢٣ ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ، عبد الرزاق

البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ اجزاء ، تحقيق محمد بهجت البيطار ، دمشق ،

١٩٦١ - ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٩٥) المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ص ٩ .

(٩٦) انظر مثلا : المحبي ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٩٧) انظر مثلا : الفزي ، لطف السمر ، ٢٠٩ ب .

(٩٨) المصدر السابق ١٧٩ ، المحبي ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ .

(٩٩) المرادي ، سلك الدرر ، ج ٤ ، ص ١١٤ ، ١٢٩ .

(١٠٠) انظر مثلا المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .